أحلام النائم

بقلم الاستاذ حامد عبد القادر

أستاذ التربية وعلم النفس بكلية أصول الدين

موضوع قيم جدير بالبحث ، بحثه المتقدمون واختلفوا فيه أيما اختلاف،وبحثه المحدثون وذهبوا فيه مذاهب شتى ، وإلى(فرويد) الطبيب النمساوى والعالم النفسى الشهير يرجع الفضل فى فتح باب الجدل وإثارة البحث فى هذا الموضوع من جديد . فانه ذكر فى كتابه القيم - المسمى « تأويل الأحلام » (١) الذى ظهر عام ١٩٠٠ - أن الحلم ظاهرة من الظواهر النفسية المعقدة التى تستحق العناية والدقة فى البحث ، فهو ليس — كما كان يقول بعض القدماء — آثاراً مهوشة لاضطراب الخلايا والمراكز العصبية أثناء النوم ، ولا بقية من بقايا النشاط العقلى الذى ضعف بانتهاء وقت اليقظة ، ولكنه عمل عقلى خاضع لقوانين وقواعد ، فالبحث العلمى فيه مجال فسيح ، وليست دراسته مفيدة من الوجهة العلمية البحتة ، فحسب ، ولكنها منتجة جداً من وجهة التحليل النفسى والعلاج النفسانى .

وقبل أن أذكر لك رأى فرويد فى الأحلام ،أود أن أصفها لك وصفاً عاماً فأقول : —

إن معظم الأحلام المتصلة الكاملة التى يتذكرها الانسان بعد اليقظة تحصل غالباً قبيل الاستغراق فى النوم ، أو قبيل الاستيقاظ منه ، أو أثناء النوم الخفيف فى الأوقات الأخرى.

فى مثل هذه الأوقات يؤدى الحلم وظائف بسيطة كتذكر الصور الذهنية ، واستحضار التجارب الماضية البسيطة ، الخالية من النقد والتمحيص والتفكير العميق والأحكام السديدة ، البعيدة عن المظاهر الجذابة والجمال الخلاب ، التى لا تدل على حضور البديهة ولا على الانسجام فى الفكر أو العمل ؛ فالمناظر مضطربة متفرقة مبعثرة ، يندمج بعضها فى بعض ، والشخص الواحد يمثل أدوار أشخاص متعددين ؛ فهو يبدأ بشخص وينتهى بآخر ، والحوادث تتقلب ، والأمكنة تتغير سراعاً لأدنى مناسبة وأقل رابطة .

فالأحلام التى هذه صفاتها ينطبق عليها تعريف الخيال الابتكارى ؛ لأنها مركبة من عناصر مختلفة ، قديمة فى جزئياتها ، غريبة فى مجموعها وتركيبها ، إلا أن الصورة العامة التى تتراءى للانسان تكون أكثر غرابة ، وأشد مخالفة للواقع ، وأقل خضوعاً لقوانين تداعى المعانى :

---

[1] Die Jraumdeutung. by Prof. S. Freud.

ومع ذلك نرى من أخص خواص الحلم أنه ينصبغ بصبغة الحقيقة أثناء وقوعه ؛ فالحالم يعتقد أنه يعيش فى عالم الحقيقة ؛ وكثيراً ما يعتريه الشك فى أمره فيعمل أعمالا يستدل بها — فى زعمه — على أنه مستيقظ لا نائم، وأن الذى يراه حقيقة واقعية لا خيال نائم؛ وما ذلك إلا لعدم الرقابة الفكرية ، وعدم القدرة على ضبط النفس أثناء أحلام النوم .

وقد يصل وضوح الأحلام ، وظهورها بمظهر الحقيقة إلى درجة أننا نخلط بينها وبين الحقيقة ، وذلك أظهر فى الأطفال ، الذين يعتقدون تمام الاعتقاد أن ماحصل لهم أثناء النوم حقيقة ؛ فيقصون على آبائهم وأمهاتهم مارأوا ، كأنما يقصون عليهم أموراً وقعت لهم بالفعل . والمتوحشون مثل الأطفال فى ذلك ؛ فقد حكى « مكدوجل » عن بعضهم أنه اعترف أمامه بأنه خاطب بعض الحيوانات وفهم لغاتها ، لا أثناء النوم ، ولكن وقت اليقظة ! وما ذلك إلا لعدم تفرقته بين الأحلام والتجارب الحقيقية .

أثر الاحساس فى الأحلام

من أبسط الأحلام ما كان ناشئا عن إحساسات حقيقية كسماع دقات الساعة ، أو حديث الحاضرين، أو الاحساس بألم فى المعدة ، أو غيرها من الأعضاء الباطنية أو الأطراف ؛ فالنائم يتصور هذه الاحساسات مكبرة معظمة ، فتقوم دقات الساعة مقام طلقات المدفع ، وحديث الحاضرين مقام ضجيج وغوغاء ، وألم المعدة مقام وخز بالابر أوطعن بالخناجر ، وطنين الذباب مقام خرير الماء ، أو حفيف الريح ، أو زمجرة الزوابع .

فالحلم فى هذه الأحوال أقرب ما يكون إلى « الادراك الحسى الكاذب » [1] ؛ الناشىء عن خطأ فى الاحساس أو فى التأويل ، إلا أن الخطأ يكون هنا أظهر كما رأيت . ومن الأحلام التى تروى من هذا القبيل أن غلاما تنبه من نومه، بعد ظهر يوم من أيام الصيف، على أثر رؤيا رآها ، وهى : أن يوما قد أتى وأن الأرض قد ملئت نوراً وهاجاً يذهب بالأبصار، وأن اسرافيل اخذ ينفخ فى الصور النفخة الأخيرة، فذعر لها الغلام واستيقظ من نومه، فاذا بالشمس ساطعة ساقطة على جبينه ، وإذا بساعة على مقربة منه تدق ، محددة منتصف الساعة الخامسة بعد الظهر .

وأحياناً يبدأ الاحساس أثناء الرؤيا فيتداخل فيها ، ويؤثر فى اتجاهها . فمن ذلك ماجرى لاحدى مشاهير الكتاب : التى كانت تجرى عليها تجربة ، فبينما كانت نائمة تتناقش فى حلمها مع بعض أصدقائها ، وتمد معهم الخطة التى يجب اتباعها أثناء الأجازة المقبلة ، إذ ألقى المجرب على مقربة منها قطعة من الشعر ، فكانت هذه عندها رسالة من أحد أرباب المطابع يذكرها باتفاق وقع بينهما ، فأخذت هذه الرسالة على أنها مقلقة لراحتها ، ولكنها مع ذلك لن تؤثر على خطتها التى عقدت العزم على اتباعها أثناء الأجازة .

ومن ذلك أن شخصاً رأى رؤيا عن الثورة الفرنسية ، وفى أثنائها سقط شىء على رقبته ،

[1] Illusion

فاستيقظ مذعوراً لأن هذا الشيء وقع على رقبته موقع المقصلة (الجلوتين)، على أن الغالب أن الحلم يحدث بدون إحساس، ويكون فى هذه الحالة أشبه شيء « بالخيل العقلى » [1] الذى تكلمنا عنه فى المقال السابق ، وذلك حينما يتخيل المريض أشياء ويرى صورا لاوجود لها فى الخارج .

وظائف الأحلام .

ليست جميع الأحلام مجرد خيالات تمر وتنقضى بلا داع ولا غرض، ولكنها مثل أحلام اليقظة مرتبطة بحياة الانسان وتجاربه وميوله أثناء اليقظة .

(١) فمن الأحلام ما يمثل حوادث وقعت بالفعل تمثيلا مطابقا لما وقع ، ولو على وجه التقريب ، وهذه الأحلام التمثيلية كانت تقع لكثير من الجنود أثناء الحرب العظمى الماضية ، وكثيراً ما كانت أحلام هؤلاء تتكرر وتقع مطابقة تماماً لما حصل لهم فى المواقع الحربية ، وبالبحث وجد أن هذه ترجع إلى مخاوف ؛ فان هؤلاء الجيوش كانوا يتشجعون ، ويضبطون أنفسهم ، ويكظمون غيظهم وخوفهم ، أثناء القتال ، وما زالوا كذلك حتى ظهرت هذه المخاوف فى أحلامهم ؛ وقد كانت هذه الأحلام من دلائل الوهن والضعف الجسمى والعقلى ، وعلامات على اقتراب مرض جسمى أو عقلى .

ومن الأحلام الناشئة عن الخوف أحلام الطفل الذى يخاف حيوانا أذاه ، فيظهر له فى نومه أثناء الحلم ، وأحلام المجرم الذى يخاف عاقبة جرمه فيراها ماثلة أمامه فى نومه .

وليس الخوف هو السبب الوحيد فى الأحلام التمثيلية، فالغضب والاشمئزاز من أسبابه أيضا، ولكن الخوف أقواها أثرا ،لأن كرامة الانسان واحترامه لنفسه يأبيان عليه أن يظهر الخوف أمام غيره ، فهو يخفيه ، ولا يزال يخفيه ، حتى تظهر عليه آثاره فى أحلامه . هذا إلى أن أثر الخوف فى النفس شديد ، فاذا لم يظهر فى اليقظة ظهر فى النوم ، ومن ذلك تفهم معنى قول البعض : إن الأحلام التمثيلية ترجع إلى الاضطراب العصبى وتداعى المعانى .

(٢) ومن الأحلام ما يكون وظيفته (التنفيس) أى إرضاء رغبة مقهورة أو شهوة مكبوتة، وهذه الأحلام التنفيسية حلوة لذيذة ربما تستمر ، ومن المؤلم الاستيقاظ بعدها ، وكثيرا ما يحدث الشك أثناءها فيختبر الانسان نفسه فى النوم ، ليعلم إن كان نائما أو مستيقظا ، لأنه يستلذ التجربة ، فيريد أن يطمئن على لذته وسروره ، ويتأكد من أنه فى عالم الحقيقة ، ولكنه سرعان ما يستيقظ من نومه متحسراً نادماً .

ولاشك أن كثيرا منا قد رأوا عدة من هذه الأحلام، وقول العوام «حلم الجعان عيش» يبرهن على شيوع هذا النوع من الأحلام بين الناس ، ولا شك أن القائل :

رأيت فى النوم أنى راكب فرساً ولى غلام وفى كفى دنانير

[1] Hallucination

أراد أن يظهر لممدوحه حاجته الشديدة إلى هذه الأشياء ، ورغبته فى الحصول عليها ، تلك الرغبة التى جعلته يحلم بها ؛ فكل رغبة مقهورة ، أو ميل مدحور صالح لأن يكون سبباً فى حلم مرض له .

وأقوى الرغبات المثيرة للأحلام الرغبات الغريزية ، كالرغبة فى الاجتماع الجنسى ، أو فى الحصول على الطعام أو الشراب أو الدفء أو المال أو الأولاد أو العلم أو الجاه ؛ ولغريزة حب الظهور والتسلط أثر كبير فى الأحلام ، فقل منا من لم يروا فى أحلامهم أنهم قاموا بالمعجزات ، وحلوا المشكلات ، وأتوا بالعجب العجاب ، فى عالم الأقوال والأعمال ؛ ومن الآباء والأمهات من يرون أبناءهم ينتصرون على غيرهم ويقهرونهم ويتغلبون عليهم فى القول والعمل ، لأن الابن منسوب إلى أبيه وأمه فانتصاره انتصار لهما .

ومن الناس من يرى أنه طار من مكان لآخر ، أو جرى على الماء ، أو مشى على الحائط من أعلى إلى أسفل أو بالعكس ، أو خاطب ملكا أو أميراً ، أو قام بغير ذلك من خوارق العادات ، مع أن شيئا من ذلك لم يكن رغبته يوما من الأيام ، فهذه الأحلام وما أشبهها من مظاهر غريزة حب التسلط .

(٣) وأهم من هذه الأحلام التى وصفناها الأحلام المتعلقة بالمستقبل التى قد نسميها الأحلام النبيية ، فمما لا شك فيه أن كثيراً من الناس يحلمون أحلاماً تتحقق بالفعل فى المستقبل ولو على وجه التقريب ، ولا شك أنك قد سمعت كثيرا من هذه الأحلام ، وعرفت أنها تقع لكثير من الناس ، وعلمت أن منها الرمزى الذى يحتاج إلى تأويل ، ومنها الحقيقى ، الذى يكون مطابقا لما يقع . فليس لنا أن ننكر هذه الأحلام ، ولا أن نحاول إرجاعها إلى أحد النوعين السابقين ، بل من الواجب أن نعترف بحصولها ، كما اعترف بذلك المتقدمون من المسلمين وغيرهم .

ومن الممكن تعليل هذه الأحلام بأحد ثلاثة وجوه : —

أولها : إن الروح إلهية بطبيعتها ، فهى ترى الماضى كما ترى المستقبل ، وتدرك ما « هناك » كما تدرك ما « هنا » ، فليست مرتبطة بزمان ولا مكان ، ولكنها لما اتصلت بالجسم ـ ذلك الحجاب الكثيف ـ تحددت بحدوده ، وصارت إدراكها مثل ذلك السجين الذى تحمله ، محدودة بحدوده ، فلا يمكن لها أن تتطلع إلى ما وراء جدرانه ، فهى لا تدرك إلا ما كان أمامها ، ولا ترى إلا ما يقع فى الحال ، ومن الممكن لها الرجوع إلى الماضى وتذكر ما حدث فيه ، فاذا تهيأ لها التخلص من قيود الجسم رجعت الى طبيعتها الأولى ولو جزئياً ، وهذا ما يحصل أثناء النوم ؛ فان الجسم والحواس تكون فى حالة انكماش وخمود ، فتظهر الروح

وتقوى ، وتسترد شيئا من حريتها المسلوبة ، فيتسنى لها حينئذ أن تدرك ما فى المستقبل .

وهذا هو التعليل الروحانى الذى جرى عليه الروحانيون ، ويقرب منه رأى ابن سينا وابن خلدون وغيرهما من المسلمين ، وبه تعلل أحلام الأنبياء والأولياء والصالحين .

وثانيها : إن هذا النوع من الأحلام يشبه الفكر أثناء اليقظة ، فهو يعتمد على الخيال المقيد الذى يرمى إلى غرض خاص ، فكما أن الانسان يصل بفكره أثناء اليقظة من المعلوم إلى المجهول ، كذلك يصل العقل الباطن الى أمور مجهولة أثناء الأحلام ؛ فالأحلام الغيبية على هذا الرأى من استنتاجات العقل الباطن الذى تكون معلومات العقل الظاهر بمثابة مقدمات يصل منها الى نتائج صحيحة ، ويعضد هذا الرأى أن الأحلام الغيبية تكون عن أشياء أو أشخاص نعرفهم أو نسمع عنهم ، وكثيراً ما نفكر فى شؤونهم وأحوالهم الخاصة أثناء اليقظة ؛ ويسمى هذا التعليل الاستنتاجى وهو أقرب إلى مذهب المحدثين الذين يعارضون المذهب الروحانى ويرجعون جميع الادراكات السماة بالغيبية أو الشاذة الى التجارب الماضية أو الالهام [1] ، ولا يعترفون بامكان تجرد العقل أو الروح عن الجسم .

وثالثها : أن الرؤيا قد تكون فى ذاتها حافزة نحو العمل مشجعة على السعى فى تحققها ، فاذا تحققت فليس ذلك راجعا الى أنها كانت من قبيل إدراك الغيب ، وإنما السبب فى تحققها هو السعى المتواصل تحت تأثير الايحاء ، فاذا رأى شخص أنه نجح فى امتحان مقبل عليه ، فقد تدفعه هذه الرؤيا إلى الجد والاجتهاد فينجح ، فتكون الرؤيا بمثابة الايحاء الدافع إلى العمل ، ولذا يسمى هذا التعليل التعليل الايحائى ، وهو وإن صح أحيانا لا يمكن تطبيقه على جميع الأحلام الغيبية ، فان كثيرا من الناس يحلمون أحلاما عن غيرهم ، ثم يسمعون أنها تحققت ؛ وإن تكرار هذه الأحلام فى كل زمان ومكان يحملنا على رفض رأى من يقولون بالصدفة .

فالظاهر أن للتعليل الاستنتاجى الغلبة على الايحائى ، ولكن ليس هناك مانع يمنعنا من التوفيق بين التعليلين بأن نقول إن كلا منهما صحيح ، هذا فى بعض الأحلام ، وذاك فى البعض الآخر .

هذا ما عن لى ذكره بالاختصار عن الأحلام بوجه عام ، وسأتكلم عن رأى « فرويد » والرد عليه فى مجلد آخر إن شاء الله تعالى . ؟

حامد عبد القادر

شعر الزهد والتشاؤم

(بقية المنشور على الصفحة رقم ٢٦٦)

وتلك دعوة أرجو أن أرى صداها فى قلب كل مصرى ، فيسعى بكل عزيمته إلى آماله الكبيرة وأمانيه الزاهرة ، غير حافل إلا بهمته ، ولا آبه لعقبة تعترضه وتحول بينه وبين أمنيته ، عالما أن النجاح توأم الثبات ، والمجد والعظمة وليدة الدأب والمثابرة .

أحمد أحمد بدوى

---

(1) Intuition